

الباب الثالث

أخبار الصيد

الباب الثالث

أخبار الصيد

توكلت على الله تعالى

ولله مني جانب لا اضيعه

وللهو مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب ، وما شاهدته من الوقعات والمصافات
والأخطار ما حضرني ذكره ولم يذسنه الزمان ومره ، فان العمر
طال ولزمت الانفراد والاعتزال ، والنسيان من ارث متقدم من أبينا
آدم ، عليه السلام .

وأنا ذاكر فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص
والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر ، ومن ذلك ما
حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر ، رحمه الله
تعالى ، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج
الملوك ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بمصر ، ومن ذلك ما
حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك
زنكي ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر
الدين قرا أرسلان بن داود بن أرتق ، رحمه الله .

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ، رحمه الله ، وكان مشغوفا
بالصيد لهجا به وبجميع الجوارح ، وما يستكثر ما يغرمه عليه
لفرجته ، فإنه كان نزهته ، فليس له شغل سوى الحرب وجهاد

الأفرنج ونسخ كتاب الله ، عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه ، وهو رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن ، فكان الصيد كما جاء في الخبر «روحوا القلوب تعسي الذكر» ، فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه .

وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي ، رحمه الله ، وكان له الجوارح الكثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتصيد منها ما تصيد وتخطيء ما تخطيء ، ووراءهم الشواهين الكوهية (١٢٤) على أيدي البازدارية ، فإذا اصطادت البزة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد ابعدت دشت خيز (١٢٥) ، فتلحق وتصيد ، وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد ، فأنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة .

وشاهدته يوما ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في باننجان وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق ، فطار ذكر دراج فأرسله عليه فأخذه ونزل ، فلما صار في الأرض فرط الدراج من كفه وطار ، فلما إرتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثبته .

ورأيته وهو في صيد الوحش دفعات ، إذا اجتمعت الحلاقة واجتمع فيه الوحش لا يقدر أحد يخل الحلاقة ، وإذا خرج من الوحش شيء رموه ، وكان من أرمى الناس ، فكان إذا دنا منه الغزال رماه ، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح ، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ، ينفذه لي مع غلام من غلمانة وأنا معه .

وشاهدته وقد اجتمعت الحلاقة ونحن في أرض نصيبين على الهرماس (١٣٦) ، وقد ضربوا الخيام ، فوصل الوحش إلى الخيام ، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئا

كثيرا ، واجتمع في الحلاقة نيب فوثب في وسطها على غزال أخذه وبرك عليه ، فقتل وهو عليه .

وشاهدته يوما ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: «هاهنا ضبيعة نائمة!» فسار ونحن معه الى واد هناك ، والضبيعة نائمة على صخرة في سفح الوادي ، فترجل أتابك ومشى حتى وقف مقابلهما وضربها بنشابة رماها إلى أسفل الوادي ، ونزلوا جاؤوا بها إلى بين يديه وهي ميتة .

ورأيت أيضا بظاهر سنجار وقد جلوا أرنباً ، فأمر فاستدارت الخيل حولها ، وأمر غلاماً خلفه يحمل الوشق كما يحمل الفهد ، فتقدم أرسله على الأرنب ، فدخلت بين قوائم الخيل ، وما تمكن منها ، وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد .

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمير الوحش واليحمير ، فرأيت يوماً وقد خرجنا الى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم ، فتصيدنا كثيرا من اليحمير ، وضربت الخيام حلقة ونزلنا ، فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائماً في العشب فأخذ في وسط الخيام .

ورأيت ونحن عائدون رجلاً قد رأى سنجاباً في شجرة ، فأعلم به شهاب الدين ، فجاء وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثاً فما أصابه . فتركه وسار شبه المغتاط الذي لم يصبه ، فرأيت رجلاً من الأتراك جاء رماه فوسط النشابة فيه ، فاسترخت يده وبقي متعلقاً برجله والنشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقع ، ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقته ، فسبحان خالق الخلق .

ورأيت الصيد بمصر كان للحافظ للدين الله عبد المجيد أبي الميمون ، رحمه الله ، جوارح كثيرة من البزاة والصقور والشواهين البحرية ، فكان لهم زمام يخرج بهم في الجمعة

يومين ، وأكثرهم رجالة على ايديهم الجوارح ، فكنت اركب يوم خروجهم الى الصيد لا تفرج بنظر صيدهم ، فمضى الزمام الى الحافظ وقال له : «إن الضيف فلانا يخرج معنا ؟» كأنه يستطلع أمره في ذلك ، فقال : «اخرج معه يتفرج على الجوارح .»

فخرجنا يوما ومع بعض البازيارية باز مقرنص بيت أحمر (١٣٧) العينين ، فرأينا كراكي ، فقال له الزمام : «تقدم ارم عليها الباز الأحمر العينين» ، فتقدم رماه ، وطارت الكراكي فلحق منها واحدا على بعد منا فحطه ، فقلت للغلام لي على حصان جيد : « ادفع الحصان اليه وانزل اغرز منقار الكركي في الأرض واكتفه واترك رجله تحت رجلك الى أن نصلك » فمضى وعمل ما قلت له ، ووصل البازيار ذبح الكركي واشبع الباز .

فلما دخل الزمام حدث الحافظ بما جرى ، وما قلته للغلام ، وقال : «يا مولانا ، حديثه حديث صياد» ، قال : « وأي شيء شغل هذا إلا القتال والصيد؟»

وكان معهم صدقور يرسلونها على البلاشيب وهي طائفة ، فاذا رأى البلاشوب الصدق دار وارتفع ، والصدق يدور في جانب آخر حتى يرتفع على البلاشوب ، ثم ينقلب عليه يأخذه .

وفي تلك البلاد طيور يسمونها البج مثل النحام يصيدونها أيضا ، وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد ، والغزال عندهم قليل ، بل في تلك البلاد بقر بني اسرائيل وهي بقر صدق قرونها مثل قرون البقر وهي اصغر من البقر تعدو عدوا عظيما ، وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها قرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها صغيرتان وهي جرداء مثل الجاموس . لها أنياب طوال في فكها الاسفل ، وفي فكها الأعلى خروق لأنيابها تخرج رؤوسها من تحت عينيها . وصياحها مثل صياح الخنزير . ولا تبرح في بركة فيها ماء وتأكل الخبز والحشيش والشعير (١٣٨) .

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، الى عكا الى عند ملك الافرنج فلک بن فلک ، فرأينا رجلا من الجنوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ، ومعه كلبه صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته ، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها ، وقال لنا ذلك الجنوي : « ان الباز عنينا اذا كان نذبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي » . فعدنا نذب ذلك الباز فكان كذلك .

فطلبه الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من الملك فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين ، فجاء معنا ، فرأيت في الطريق يثب الى الغزلان كما يثب الى اللحم ، ووصلنا به الى دمشق ، فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات .

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان ابن داود ، رحمه الله ، وهناك الحجل والزرخ (١٣٩) كثير والدراج ، فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمكن الباز منها ، وأكثر صيدهم الاراوي ومعزي الجبل يعملون لها شبابا ويمدونها في الاودية ويطردون الاراوي فتقع في تلك الشباك وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد ، وكذلك الارانب .

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فحضرته ونحن بأرض حماة ، وقد جلوا له اربيا ف ضربها بدشابة كسماء وقامت وسبقت الى محجر بخلته ، فركضنا خلفها ، ووقف عليها نور الدين . وناولني الشريف السيد بهاء الدين رحمه الله ، رجلها قد قطعتهما الدشابة من فوق العرقوب وشقت جوفها قرنة النصالة فوقع منها بيت الولد ، وسبقت بعد هذا وانحجرت ، فأمر نور الدين بعض الوشاقية نزل وقلع خفافه وبخل خلفها ، فما وصل اليها ، وقلت للذي معه بيت الاولاد وفيه خرنقات « شقة واطمروهم بالتراب » ، ففعل ، فتحركوا وعاشوا

وحضرته يوما وقد أرسل كلبة على ثعلب ونحن على قرا حصار
بأرض حلب ، فركض خلفه وأنا معه ، فلحقت الكلبة أخذت ذنب
الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها ، فصارت الكلبة
تعوي ، ونور الدين رحمه الله يضحك ، ثم خلاها وانجحر. فما
قدرنا عليه .

وجاءه يوما ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد
باز ، فقال لنجم الدين أبي طالب علي كرد (١٤٠) رحمه الله « قل
لفلان - يعنيني - يأخذ هذا الباز يلعب به» ، فقال لي ، فقلت
« ما أحسن له» فقال نور الدين: «أنتم في الصيد ما كنتم تزالون ، ما
تحسن تصلح الباز؟» قلت: «يا مولاي ، ما كنا نصلحها نحن ، كان
لنا بازيارية وغلمان يصلحونه ويتصيدون بها قدامنا» ، وما أخذت
الباز.

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئا ما اتسع لي الوقت
لذكره مفصلا ، وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وألته
وغیره . وما رأيت مثل صيد والذي ، رحمه الله ، فما أدري كنت
أراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكل ما يفعل المحبوب
محبوب» ، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق ، وأنا أذكر شيئا
من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه

وذلك أن والذي ، رحمه الله ، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن
والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل يذسخ كتاب الله تعالى ، فكان
قد ذسخ ستا وأربعين ختمة بخطه ، رحمه الله ، منها ختمتان
بالذهب جميع القرآن ، ويركب الى الصيد يوما ويستريح
يوما ، وهو صائم الدهر .

ولنا بشيزر متصيدات : متصيد للحجل والأرانب في الجبل قبلي
البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على النهر في
الازوار من غربي البلد .

وكان يتكلف في تسيير قوم من أصحابه الى البلاد لشري البزاة ، حتى أنه انفذ الى القسطنطينية أحضر له منها بزاة ، وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة ، فاضطروا الى ان صاروا يطعمون البزاة لحم السمك ، فأثر ذلك في اجنحتها صار ريشها ينكسر وينقصف ، فلما وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة ، وفي خدمة الوالد بازيار طويل اليد في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم ، فواصل اجنحتها واصطاد بها ، وقرنص بعضها عنده .

وكان اكثر ما يستدعي البزاة ويشاريها من وادي ابن الاحمر بالعلا (١٤١) ، فأحضر قوما من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلي وبسمالخ وحلة عارا (١٤٢) ، وتحدث معهم في ان يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة ، ووهبهم وكساهم ، فمضوا وعملوا بيوت الصيد ، فاصطادوا بزاة كثيرة فراخا ومقرنصة وزرارق ، فحملوها الى الوالد وقالوا : « يا مولانا ، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيبه وتقرر لنا ثمنا نعرفه لا تجاذب فيه » فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشرة دينارا ، وثمان الزرق المقرنص نصفها ، وثمان الباز المقرنص عشرة بنانير ، وثمان الزرق المقرنص نصفها ، وانفتح للجبلين أخذ بنانير بغير كلفة ولا تعب ، انما يعمل به بيتا بحجارة ، وعلى قدر خلاقته ، ويغطيه بعيدان ويستترها بقش وحشيش ، ويجعل نافذة ، ويأخذ طير حمام يجمع رجله على قضيب ويشدها اليه ، ويخرجه من تلك النافذة ، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح اجنحته ، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه ، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب الى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز ، وهو قابض للطير الحمام ، وأنزله اليه وخيط عينيه ويصبح من الغد يصلنا به ، ويأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين .

فكثر الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج :
فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر (١٤٣) من كثرتها .

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلابزية ، وعلم قوما من
مماليكه اصلاح البزاة فمهرروا فيها ، وكان يخرج الى الصيد ونحن
أولاد معه في اربعة رجال ، ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا ، فإننا
ما كنا نأمن من الفرنج لقربهم منا . ويخرج معنا بزاة كثيرة من
العشرة وما حولها ، ومعهم صقاران وفهادان وكلابزيان ، مع
أحدهما كلاب سلوقية ومع آخر كلاب زغارية ، فيوم خرجوا الى
الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا اذا خرج الى طريق
الجبل : « تفرقوا ، كل من عليه قراءة يقرأها » ، ونحن أولاد
حفاظ القرآن ، فذفترق نقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من
يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا ، فإذا أخبرناه يقول : انا
قرأت مائة آية ، أو نحوها ، وكان رحمه الله ، يقرأ القرآن كما
أنزل .

فإذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فتفرق بعضهم مع
البازيارية ، فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب بازيارسل
عليه ، ومعهم من مماليكه وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس
بالصيد ، فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال الا
اصطدناه ، وننتهي في الجبل نصيد الى العصر ، ثم نعود وقد
اشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت (١٤٤) في الجبل شربت
واستحمت ، ونعود الى البلد بعد عتمة .

فإذا ركبنا الى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا ، نقع في
الصيد من باب المدينة ثم نصل الى الازوار فيقف الفهود والصقور
برا من الزور وندخل اليه بالبزاة ، فان طارت دراجة أخذها الباز ،
وإن قفزت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة ، فان أخذها والا خرجت
الى الفهود أرسلوا عليها ، وان قفز غزال خرج الى الفهود أرسلوا

عليه . فان اخذ والا ارسلوا عليه الصدقور ، فما يكاد يفلت منا صيد
الا بفسحة الاجل .

وفي الازوار خنازير كثيرة تخرج ، فنركض عليها ونقتلها فيكون
فرحنا بقتلها اكثر من فرحة الصيد .

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والامر المهم ، لا
يشغل أحد . بحيث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر
الارانب او الطير في اوكارها .

وكان قد صار بينه وبين بني روبال - تروس ولاون الارمن ممن
الصحاب المصيصة وطرسوس واننة والدروب - مصادقة ومكاتبة
اكبر سببها رغبته في البزاة ، فكان ينفذون له كل سنة عدة من عشرة
بزاة او ماحولها على ايدي رجاله ارمن بسازيارية وينفذون الكلاب
الزغارية ، وينفذ لهم هو الحصن والطيب ، ومن كسوة مصر ،
فكان يجيئنا من عندهم بزاة . ملاح نادرة فاجتمع عندنا في بعض
السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزاة

دوناه وجاءنا من الجبل عدة فيها باز كأنه صقر عريض فرخ ما
يلحق بذلك البزاة ، والبازيار غنائم يقول: « ما في هذه البزاة كلها
مثل هذا الباز اليدشور (١٤٥) ما يترك شيئا الا يصيده » ، ونحن
لا نصدقه ، ثم أصلح ذلك الباز ، فكان كما ظن فيه من أفره البزاة
وأطيرها وأشطرها ، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود مما
كان ، وعمر ذلك الباز وقرنص عندنا ثلاث عشرة سنة ، فكان قد
صار كأنه من أهل البيت يصطاد الخدمة ، لما جرت به عادة
الجوارح أن يصيدوا لذفوسهم .

وكان مقامه عند الوالد ، رحمه الله ، لا يتركه عند البازيار ، لأن
البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصطاد به . وذلك
الباز كان يكفي من نفسه ويعمل ما يراده منه ، فكنا نخرج الى

صيد الحجل ومعنا عدة بزا فیدفعه الوالد إلى بعض البازياريه
ويقول: «اعتزل به ولا ترسله بالحمله وتستتر في الجبل». فكلما خلوا
أبصروا حجلة لابة من شجرة قد أعلموه بها يقول: «هاتوا الیدشور»
ساعة یقیم یدیه له قد طار من علی ید البازیار ، وقع علی یدیه بغير
دعو ، ثم یدستشف برأسه ورقبته فیقف علی الحجلة النائمة
ویرمیها بقضیب فی یدیه فتطیر ، ویرسل علیها الیدشور فیأخذها فی
عشرة أذرع ، وینزل الیه البــــــــــــــــازیار یذبــــــــــــــــح فی رجله
ویرفعه ، فیقول: «اعتزل به» فإذا رأوا حجلة أخرى لا بدة عمل بها
ذاك ، حتی یصید خمس ست حجلات ، کذا یأخذها فی عشرة
أذرع ، ثم یقول للبازیار «اشبعه» فیقول له: «یامولای ، ما تدعه
نتصید به؟» یقول: «یا بنی ، معنا عشرة بزا نتصید بها وهذا قد
صاد ، هذه الاطلاق تقطع عمره» ، فیشبعه ویعتزل به البازیار .

فإذا انهینا فی الصيد واشبعنا البزا وحططناها علی الماء شربت
واستحمت والیدشور علی ید البازیار ، فإذا استقبلنا البلد
راجعین ونحن فی الجبل قال: «هات الیدشور» حملة علی یدیه
وسار ، إن طارت حجلة من بین یدیه ارسل علیها صاها حتی
یصید عشرة اطلاق أو أكثر علی قدر ما یطیر له من الحجل ، وهو
شبعان لا یحط مذسره فی مذبح حجلة ولا یذوق دمه ، فإذا بخلنا
الی الدار قال: «هاتوا طاسة ماء» فجاءوا بطاسة فیها ماء قدمها
الیه وهو علی یدیه ، رحمه الله ، فیشرب منها ، وإن کان یرید
یستحم خضخض مذسره فی الماء ، فیدری انه یرید یستحم فیأمر
باحضار جفنة كبيرة فیها ماء ویقدمه الیه ، فیطیر ینزل فی وسطها
ویدف فی الماء حتی یکتفی من السباحة ثم یطلع ، فیحطه علی قفاز
خشب ، قد عمل له ، کبیر ، ویقرب منه مذقل نار ، فیتمشق
ویتدهن حتی یدشف من الماء ، ثم یضع له فروا مطویا ، فینزل إلیه
ینام علیه ، فلا یزال بیننا علی ذلك الفرونائما حتی یتهور
اللیل ، ویرید الوالد یدخل الی دار الحرم فیقول لأحدنا : «احمله»
فیحمل کما هو نائم علی الفرو حتی یحط الی جانب فراش الوالد
رحمه الله .

وكان من عجائب هذا الباز ، وعجائبه كثيرة وأنا أذكر منها ما يحضرني ذكره ، فان الأمد قد طال وانستني السذون كثيرا من أحواله ، أن كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر واناؤها وبيضانيات (١٤٦) من التي تكون بين البقر لتلتقط الذبان من الدار ، وكان يخل الوالد وهذا الباز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز الى جانبه فلا يطلب شيئا من تلك الطيور ولا يثب اليها ، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها .

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برا من سورها نقاق كبئار ماء وفيه الطيور ، فيأمر الوالد البازيار وغلاما معه يخرج الى قريب من تلك الطيور ، ويأخذ اليدشور على يده ويقف به على الحصن يريه الطيور وهو شرقي البلد والطيور غربيها ، فاذا أبصرها أرسله فينزل يشف على البلد حتى يخرج منه وينتهي الى الطيور ، فيدق له البازيار الطبل فتطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع ارسل منه مسافة بعيدة .

وكنا نخرج الى صيد طير الماء والدراج ، ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد ، فيقول الوالد: «هات اليدشور» ، فيأخذه وهو شعبان ويتقدم الى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها ، فان اصاد وقع بيننا نزل اليه البازيار ذبح في رجله ورفع ، وان لم يصد وقع على بعض أكناف النهر فما نراه ولا ندري أين وقع ، فنخله وندخل إلى البلد ، ويصبح البازيار من سحر يخرج اليه يأخذه ويطلع به إلى الحصن إلى عند الوالد ، رحمه الله ، ويقول له: «يامولاي» قد صقل هذا الصقيع قفاه طول الليل ، وقد أصبح يقط البولاد (١٤٧) فاركب ابصر ايش يعمل اليوم!

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السمانة الى الوز السمند والارنب ، وكان البازيار يشتهي ان يصيد به الكراكي والحرجل ما يتركه الوالد ويقول: «الحرجل والكراكي نصيدها

بالصقور » ، وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيده سنة من السنين ، حتى أنه كان اذا ارسل واخطأ لا يجيء الى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندرى ما به ، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد .

واستحم يوما ، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبلل عن جانبه ، واذا في جانبه سلعة في قد اللوزة ، فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال : « يا مولاي ، هذه التي قصرت بالباز وكانت تهلكه » ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة ، وختـم موضعها ، وعاد الـيدشور الى الطيور بالسيف والنطع .

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة في ذلك الوقت ينفذ كل سنة يطلب الباز الـيدشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوما يتصيد به ويأخذه البازيار ويعود ، فمات الباز بشيزر .

واتفق انني كنت قد زرت شهاب الدين الى حماة ، وأصبحت يوما وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد ، فسألت « من قد مات؟ » قالوا : « بنت لشهاب الدين ، فأردت الخروج خلف الجنازة ، فماحكني شهاب الدين ومنعني ، وخرجوا قبروا الميت في تل صـفرون ، فلما عادوا قال لي شهاب الدين : « تدري من هو الميت؟ » قلت : « قالوا : ولد لك » ، قال : « لا ، والله ، بل هو الباز الـيدشور ، سمعت أنه مات أنفنت أخذته وعملت له تابوتا وجنازة وقبرته ، فانه كان يستحق ذلك »

وكان للوالد ، رحمه الله ، فهدة في الفهود مثل الـيدشور في البزة ، اصطادوها وهي وحشية ، من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها واستجابها (١٤٨) وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزبد ، ويقدم اليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحو من سنة ، فخرجنا يوما إلى الازوار ، فدخلت

الخيال الى الزور وأنا واقف في قم الزور ، والفهاد بهذه الفهدة قريب مني . فقام من الزور غزال وخرج إلي ، فدفعت حصانا كان تحتي من أجود الخيل أريد أرده إلى الفهدة ، وعاجله الحصان ندسه بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادته . فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت: «خذوا من الصيد ما أردتم» فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه ، ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقت ان يقول «قد وقفت» تجدد عدوا او تأخذ الغزال .

وصينا بشيزر الغزال الادمي ، وهو غزال كبير ، فكنا اذا خرجنا بها الى العلاة والارض الشرقية ، وفيها الغزال الابيض ، لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها الا تجذبه ترميه ، وتغير على الغزلان كأنها كانت ترى انهم خشوف لصغر الغزال الابيض .

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد ، رحمه الله ، وله جارية تخدمها ، ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفي الحائط سكة مضروبة يجيء الفهاد بها من الصيد الى باب الدار يحطها وفيها المرفقة ، وتدخل الى الدار الى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجيء الجارية تربطها الى السكة المضروبة في الحائط ، وفي الدار والله ، نحو من عشرين غزال ادمي وابيض وفحول ومعزى وخشوف قد توالدت في الدار ، فلا تطلبهم ولا تروعهم ، ولا تزول عن موضعها ، وتدخل الى الدار وهي مسيبة فلا تلتفت الى الغزلان .

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تذفر ، ورأيتها يوما ، وقد بالت على تلك القطيفة المفروشة لها ، وهي تتلثلها وتضربها حيث بالت على القطيفة ، ولا تهر عليها ولا تضر بها .

ورأيتها يوما وقد أثارته من بين يدي الفهاد أرنبين ، وقد لحقت

الواحدة وأخذتها وعضتها بفمها وتبعت الأخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول بالأرنب الاولى ، فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب .

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي ، رحمه الله ، وكان في النحو سيديويه زمانه ، قرأت عليه النحو نحووا من عشر سنين ، وكان متولي دار العلم بطرابلس ، فلما أخذ الاقرنح طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويأذن الناسخ ، وكان قريب الطبقة في الخط من طريقه ابن البواب ، أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد ، رحمه الله ، ختمتين ثم انتقل الى مصر ومات بها .

وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجا ، دخلت عليه يوما لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو: «كتاب سيديويه» ، و«كتاب الخصائص» لابن جني «وكتاب الايضاح» لأبي علي الفارسي «وكتاب اللمع» ، و«كتاب الجمل» . فقلت: «يا شيخ أبا عبد الله» ، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال: «قرأتها؟ لا والله الا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري: خذ جزءا واقتحه واقرأ من أول الصفحة سطرا واحدا» ، فاخذت جزءا وفتحتيه وقرأت منه سطرا ، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظا حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها ، فرأيت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر .

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث .

وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة ، وهو راكب في رجليه افدام (١٤٩) وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه ادماهما . وهو مشغول ينظر صيد الفهدة ولا يحس بتألم رجليه - مشغول بما يراه من تسللها الي الغزلان وعدوها وحسن صيدها .

وكان الوالد ، رحمه الله ، محظوظا من الجوارح النادرة الفارهة ، وذلك انها كانت عنده كثيرة فيندر منها الجارح

الفاره ، وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت احمر العينين ، فكان من أفره البزاة ، فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتوج مقلد ، رحمه الله ، من مصر - وكان مقامه بها في خدمة الأمر بأحكام الله - يقول: «سمعت في مجلس الأفضل ذكر الباز الأحمر العينين ، والأفضل يستخبر المحادث عنه وعن صيده» ، فنفذه الوالد ، رحمه الله ، مع بازياره الى الأفضل ، فلما حضر بين يديه قال له: «هذا هو الباز الأحمر العينين؟» قال: «نعم يا مولاي» ، فقال: «أي شيء يصيد؟» قال: «يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد» ، فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية ، ثم عادوا اصطادوه ، فجاءنا كتاب عمي ، رحمه الله ، يقول: «الباز الأحمر العينين ضاع وقرنص في الجميز ، وعادوا اصطادوه وتصيدوا به ، وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة».

وكنا يوما عند الوالد ، رحمه الله ، وقد جاء انسان من فلاحى معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الأجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير ، ما رأيت قط بازا مثله وقال: «يا مولاي ، كنت اصلي للدلم (١٥٠) بالنادوف ، ف ضرب هذا الباز على بله في النادوف ، فأخذته وحملته إليك» ، فأخذه وأحسن إلى الذي أهده ، ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه ، وإذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد أفلت من الأفرنج ، وقرنص في جبل المعرة ، فكان من أفره الجوارح وأشطرها .

وشاهدت يوما وقد خرجنا معه ، رحمه الله ، الى الصيد وقد استقبلنا على بعد رجل معه شيء ما نتحققه ، فلما دنا منا وإذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين وأحسنها وقد خمش يديه وهو حامله ، فدلاه ومسك سبأقيه (١٥١) ورجليه - والشاهين مدلى مذشور الأجنحة ، فلما وصلنا قال: «يا مولاي ، اصطدمت هذا الطير ، وقد جئت به إليك» ، فسلمه الوالد الى البازيار فأصلحه ، ووصل ما انكسر من ريشه ، ولم يخرج مخبره مثل

منظره ، كان قد أتلفه الصياد بما عمل به ، والشاهين هو الميزان أننى شيء يعيبه ويفسده ، وكان هذا البازيار صانعا مجودا في اصلاح الشواهين .

وكنا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد ، حتى الشباك والفؤوس ، والمجارف والكلاليب لما ينحدر من الصيد ، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب ، فاذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب ، فاذا خرج أحدهما عن القصد تتحنح البازيار وأشار بيده الى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو ، ورأيت أنه وقد أدار شاهينا على قطعة من الصلاصل نازلة في مرج ، فلما أخذ الشاهين طبته دق لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصة قطعة ، وأخذها ونزل ، فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه ، واثره قد وقع على بعد في الماء لاننا كنا بالقرب من النهر .

وقال له يوما غلام يقال له أحمد بن مجير لم يكن ممكن يركب معه : « يامولاي ، انتهيت ابصر الصيد » قال : « قدموا لأحمد فرسا يركبه ويخرج معنا » فخرجنا الى صيد الدراج ، فطار ذكر وتنزى (١٥٢) كما جرت العادة وعلى يد الوالد ، رحمه الله ، اليحشور ، فأرسله عليه فطار مع الأرض الأرض والحشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع ارتفاعا كبيرا ، فقال له أحمد : « يامولاي ، وحياتك كان يتلاهى به حتى أخذه »

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغارية : كلاب جياذ ذكور وأناث ، فكانت تتوالد عندها ، وصيدها الطير طبع فيها .

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خاف الكلاب التي مع الكلابزي ، فأرسل بازا على دراجة فبنجت (١٥٣) في حلفاء في جرف النهر ، فأرسلوا الكلاب على الحلفاء لتطير الدراجة ، وذلك

الجروة واقفة على الجرف ، فلما طارت الدراجة وثبت الجروة خافها من على ذلك الجرف فوقعت في وسط النهر ، وماتعرف الصيد ولاصادت قط ،

ورأيت كلبا من هذه الزغارية وقد بنجت حجلة في الجبل في بنج صعب وقد نخل اليها الكلب وأبطأ ، ثم سمعنا حشكة في داخل البنج فقال الوالد ، رحمه الله : « في البنج وحش وقد قتل الكلب » ثم بعد ساعة خرج الكلب يجر رجل ابن أوى ، وكان في البنج قد قتله وجره أخرجه الينا .

وكان الوالد ، رحمه الله ، سار الى اصبهان الى دركاه السلطان ملك شاه ، رحمه الله ، فدكى لي قال : « لما قضيت اشغالي من عند السلطان وأردت السفر ، أردت استصحب معي جارحا ، اتفرج به في طريقي ، فجاؤوني ببزاة ومعها ابن عرس معلم يخرج الطيور من البنج فأخذت صقورا تصيد الارانب والحبارى ، واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة » .

وكان عنده ، رحمه الله ، من الكلاب السـلوقية كلاب جياد ، أرسل يوما الصقور على الغزلان والارض مـطر ثقيلة بالوحل ، وأنا معه صغير على برذون لي ، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين ، وبرذوني لخفتي عليه مستظهر ، وقد صرعت الصقور والكلاب الغزال ، فقال لي : « يا أسامة الحق الغزال وانزل امسك رجله الى أن نجى » ففعلت ، ووصل هو رحمه الله ، فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد ، يسمونها الحموية صرعت الغزال ، وهي واقفة ، واذا قطعة الغزالان التي اصطلنا منها قد عانت عابرة علينا ، فأخذ ، رحمه الله ، قلانة الحموية و خرج يهرول بها حتى رأت الغزالان ، وأرسلها عليها اصططت غزالا آخر .

وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنة وأنه لايزال صائما

يركض نهاره كله ، وكان لايتصيد الا على حصان او اكديش جواد ، ونحن معه اربعة اولاده نتعب ونكل وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب ، ولا يقدر وشاقي ولا صاحب جنيب ولا حامل سلاح يقصر في الركض على الصيد .

وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودرقتي ويجنب حصاني ، فلا يركض على الصيد ولا يتبعه ، فيحرد الوالد عليه ، فعل ذلك مرة بعد مرة ، فقال له الغلام : « يامولاي ، مايفعك أحد من الحاضرين ، والعياذ بالله ، مثل ابذك هذا ، فدعني أكون خلفه بحصانه وسلاحه ، إن احتجته وجدته ، وأحسب أنني ماأنا معكم » فما عاد يلومه ولا يذكر عليه كونه مايركض على الصيد .

ونزل علينا صاحب أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح ، فركب الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد وآخرهم ماأبعد عن البلد ، فتبعتهم خيلنا ، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد ، ووصل الافرنج الى البلد والوالد قد طلع على تل سكين (١٥٤) يراهم وهم بينه وبين البلد ، ومازال واقفا على التل الى أن انصرفوا عن البلد وعاد الى الصيد .

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر فصرع منها يوما خمسة أو ستة على فرس له بهماء تسمى فرس خرجي باسم صاحبها الذي باعها ، كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة وعشرين ديناراً ، فطرد آخر اليحامير ، فوقع يدها في حفرة مما يحفر الخنازير فانقلبت عليه كسرت ترقوته ثم قامت ركضت قدر عشرين ذراعاً وهو مطروح ، ثم عادت وقفت عند رأسه تنحب وتصلح حتى قام وجاءه الغلمان أركبوه ، فهذا فعل الخيل العربية .

وخرجت معه ، رحمه الله ، الى نحو الجبل لصيد الحجل ، فنزل

غلام له اسمه لؤلؤ ، رحمه الله ، لبعض شغله ، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحت برزون ، فرأى ظل تركشه (١٥٥) اجفل منه فرماه وانقلت ، فركضت والله عليه وأنا وبعض الغلمان من بكرة الى بعد العصر الى أن ألجأناه الى جشار في بعض الأزوار ، وقام الجشارية مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش ، وأخذته وعدت والوالد ، رحمه الله ، واقف في ظاهر البلد ينتظرني ما يصيد ولا ينزل في داره ، فالبرانين بالوحش اشبه مما هي بالخيل .

حكى لي ، رحمه الله قال : « كنت أخرج الى الصيد ويخرج معي الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطرميز رحمه الله - وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية - فكنا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ، ونحن نتصيد حوله ، فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا ، فقال يوما : « ياسيدنا أنا جالس على صخرة واذا حجلة قد جاءت وهي تنهذكف وهي معية الى تلك الصخرة التي أنا عليها ، دخلت واذا الباز قد أتى خلفها وهو بعيد منها ، فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح : عيذك عيذك ياسيدنا ، وجاء وهو يركض وأنا أقول : اللهم استر عليها ، فقال : ياسيدنا اين الحجلة ؟ قلت : مارايت شيئاً ، ماجأت الى هاهنا ، وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرأها ، فقال : أقول الحجلة هاهنا تقول لا ، وأخذها ياسيدنا كسر رجلها ورماها الى الباز ، وقلبي يتقطع عليها » .

وكان هذا لؤلؤ رحمه الله ، اخبر الناس بالصيد ، شاهدته يوماً وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية ، فكنا نخرج نصطاد منها شيئاً كثيراً ، وكانت أرانب صفارا حمر فشاهدته يوماً وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالباله (١٥٦) أخذها ، ثم جلى أرنباً عاشرة ، فقال له الوالد ، رحمه الله ، : « دعها تقيموها للكلاب نتفرج عليها » فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب ، فسبقت الأرنب وسلمت ، فقال لؤلؤ : « يامولاي ، لو كنت تركتني طعنتموها وأخذتها »

وشاهدت يوما أرنبا قد ثـورناها وأرسلنا عليها
الكلاب ، فأنجحرت في ارض الخبيبة (١٥٧) فدخلت كلبة سوداء
خافها في المجحر ، ثم خرجت في الحال وهي تتعوص (١٥٨) ثم
وقعت فماتت ، فما انصرفنا عنها حتى تفسخت وماتت وتهرأت
وذاك أنها اسعتها حية في المجحر .

ومن عجيب ما رأيت من صيد البـزاة أنني خرجت مع
الوالد ، رحمه الله ، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب
اياما ، فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء ، فرأينا طيورا
ممرجة في مرج تحت شرف ، فتقدم الوالد أرسل عليها بازا مقرنض
بيت ، فطلع مع الطيور اصاد منها ونزل فما رأينا معه شيئا من
الصيد ، فنزلنا عنده واذا هو قد اصاد زرزور وطبق كفه عليه ، فما
جرحة ولا آذاه ، فنزل البازيار خلصه وهو سالم .

ورأيت من الوز السمند حمية وشجاعة كحمية الرجال
وشجاعته ، وذلك اننا أرسلنا الصقور على رف وز سمند ودققنا
الطبول فطار ، ولحقت الصقور تعلقت بوزة حطتها من بين
الوز ، ونحن بعيد منها ، فصاحت ، فترحل من الوز اليها خمسة
سته طيور يضربون الصقور بأجنحتها ، فلولا نبادرهم كانوا
خلصوا الوز وقصوا اجنحة الصقور بمناقيرهم .

وهذا ضد حمية الحباري ، فانها إذا قرب منها الصقر نزلت الى
الأرض وكيف دارا استقبالته بنذبتها ، فاذا بنا منها سلحت عليه بـلت
ريشه وملأت عينيه وطارت ، وان اخطأته بما تفعله به أخذها .

ومن أغرب ما صاده الباز مع الوالد ، رحمه الله ، أنه كان على
يده باز غطراف قرخ وعلى خليج ماء عيمة وهي طير كبير مثل لون
الباشون (١٥٩) الا أنها أكبر من الكركي ، من طرف جناحها
الى طرف جناحها الآخر أربعة عشر شبرا ، فجعل الباز
يطلبه ، فأرسله عليه ودق له الطبل ، فطار ودخل فيه الباز أخذه

ووقعاً في الماء ، فكان ذلك سبب سلامة الباز ، والا كان قتله بمنقاره ، فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعدته مسك العيمة واطلعها ، فلما صارت على الأرض صار الباز يبصرها ، ويصيح ويطير عنها ، وما عاد يعرض لها ، ولا رأيت بازاً سوى ذلك اصطادها ، فانها كما قال أبو العلاء بن سليمان في العنقاء : « أرى العنقاء تكبر أن تصادا » .

وكان الوالد رحمه الله ، يمضي الى حصن الجسر ، وهو كثير الصيد فيقيم فيه أياماً ، ونحن معه نصيد الحجل والدراج وطيور الماء واليحامير والغزلان والأرانب ، فمضى يوماً إليه وركبنا الى صيد الدراج ، فأرسل بازاً يحمله ويصلحه مملوك اسمه نقولا على دراجة ومضى نقولا يركض وراءه ، وقد بنج الدراج في حلفاء ، وإذا صياح نقولا قد ملأ الأسماع وعاد يركض ، قلنا : « مالك ؟ » قال : « السبع خرج من الحلفاء التي وقع فيها الدراج فخلت الباز وانهمزت » وإذا السبع ايضاً ذليل مثل نقولا لما سمع أجراس الباز خرج من الحلفاء منهزماً الى الغاب .

وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير نهر صغير بالقرب من الحصن ، وننفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب ، فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جبة مثل الخشوت ، ولها في الجبة ثلاث شعب حديد طول كل شعبة ذراع ، وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود الى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبة التي فيها الحديد فما يخطئها ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها ، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضة فيه شوك حديد ، وفي طرفه الآخر خيط مشدود الى يده ، ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة ، وآخر ينزل يسبح ويمر يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يدخل اصابعه في

خواشيم السمكة ، وهي لاتتحرك ولاتنفـر ، ويأخذها
ويطلع ، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزة

وتوالى المطر والهواء علينا أياما ونحن في حصن الجسر ، ثم
أمسك المطر لحظة ، فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد : « البزة
جياع جيدة للصيـد ، وقـد طـابـت وكف
المطر ، ماتركب ؟ » قال : « بلى » فركبنا فما كان بأكثر من أن
خرجنا الى الصحراء ، وتفتحت أبواب السماء بالمطر ، فقلنا
لغنائم : « أنت زعمت أنها طابت وصحت حتى أخرجتنا في هذا
المطر ! » قال : « ماكان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطر ؟ كنت
قلتم لي تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحبة ! »

وكان هذا غنائم صانعا جيدا في اصلاح الشواهين والبزة
خييرا بالجوارح ، ظريف الحديث طيب العشرة ، قد رأى من
الجوارح مايعرف ومالايعرف .

خرجنا يوما الى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا
الجلالي شيئا واذا كركي مطروح على الأرض ، فنزل غلام قلبه واذا
هو ميت وهو حار مابرد بعد ، فراه غنائم قال : « هذا قد اصطاده
الزريق (١٦٠) » .

فتش تحت جناحه واذا جانب الكركي مذبوب وقد أكل
قلبه ، فقال غنائم « هذا جرح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق
تحت جناحه يثقب اضلاعه ويأكل قلبه »

وقضى الله سبحانه أنني صرت الى خدمة اتابك زنكي رحمه
الله ، فجاءه جرح مثل العوسق أحمر المذسر والرجلين جفون عينيه
حمر ، وهو من أحسن الجوارح ، فقالوا : « هذا الزريق » مابقي
عنده الا اياما قلائل وقرض السيور بمذسره وطار .

وخرج الوالد ، رحمه الله ، يوما الى صيد الغزلان ، وأنا معه

صغير فوصل وادي القناطر واذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق ، فأخذهم وكتفهم وسلمهم الى قوم من غلمانهم يوصلونهم الى الحبس بشيزر ، فأخذت أنا خشتا من بعضهم ، وسرنا في الصيد ، واذا عانة حمير وحش ، فقلت للوالد : « يامولاي ما ابصرت حمير الوحش قبــــــــــــــــل اليوم ، عن أــــــــــــــــمــــــــــــــــرك أركض أبصرهم ، فقال : « افعل » وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل ، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذته من الحرامية ، فصرت وسط العانة فأفردت منها حمارا وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئا لضعف يدي وقلة مضاء الحرب ، فرددت الحمــــــــار حتــــــــى رددتــــــــه الى اصحابي ، فأخذه ، وعجب الوالد ومن معه من عدو تلك الفرس .

فقضى الله سبحانه انني خرجت يوما اتفرج على نهر شيزر وهي تحتي ، ومعني مقرأ يذشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة ، فنزلت تحت شجرة ودفعت الفرس الى الغلام فعمل فيها شكالا وكان الى جانب النهر ، فنقرت ووقعت في النهر على جنبها ، وكلما ارادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشكال ، وكان الغلام صغيرا لا يقدر على تخليصها ، ونحن لانعلم ولاندرى ، فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق ، فقططنا شــــــــكالا وأطلعناها ، فماتت ، وما كان الماء يصل الى عضدها الذي غرقت فيه ، وانما الشكال اهلكها .

وخرج يوما الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد ، وخرج معه أمير يقال له الصمصام ، من أصحاب فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس على سبيل الخدمة ، وهو رجل قليل المخبرة بالصيد ، فأرسل الوالد بازا على طيور ماء فأخذ منها طيرا ووقع في وسط النهر ، فجعل الصمصام يدق يدا على يد ويقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، كيف كان خروجي في هذا اليوم؟ » فقلت له : « يا صمصام ، تخاف على الباز أن يغرق؟ » قال : « نعم قد غرق بطة هو حتى يقع في الماء ولا يغرق؟ » فضحكت وقلت : « الساعة يطلع » فأخذ الباز رأس

الطير وسبح وهو معه حتى طلع به ، فبقي الصمصام يتعجب

من ذلك ويسبح الله سبحانه ، ويحمده على سلامة الباز .

ومنايا الحيوان ، مختلفة الألوان ، قد كان الوالد ، رحمه الله ، أرسل زرقا ابيض على دراجة ، فوقعته الدراجة في حلفاء وبخل معها الزرق .

وفي الحلفاء ابن أوى أخذ الزرق قطع رأسه ، وكان من خيار الجوارح وأفرها .

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوما وبين يدي غلام لي معه باشق ، فرماه على عصافير ، فأخذ عصفورا ، وجاء الغلام ذبح العصفور في رجل الباشق ، فذفض الباشق رأسه وتقيأ دما ووقع ميتا ، والعصفور في تلفه مذبح فسبحان مقدر الآجال .

واجتزت يوما من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت هناك ، ومعى زربطانة ، فرأيت عصفورا على حائط أنا واقف تحته ، فرميته ببندقية فأخطأته ، وطار العصفور وعيني الى البندقية ، فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نقب في الحائط فوقعته البندقية على رأسه ، فقتلته ، ووقع بين يدي فذبحته ، وما كان صيده عن قصد ولا اعتماد .

وأرسل رحمه الله ، يوما الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير الشوك ، فأخذها وانفرطت منه ، فجلس على الأرض ، وراحت الأرنب ، فركضت أنا فرسا دهماء تحتي من جياذ الخيل لأرد الأرنب ، فوقعته يد الفرس في حفرة فانقلبت علي ، فملاّت يدي ووجهي من ذلك الشوك وانفسخت رجل الفرس ، ثم انتقل الباز من الأرض بعدما ابعدت الأرنب لحقها اصاها فكانه كان قصده اتلاف فرسي وأنيتي بالوقوع في الشوك .

فأصبحنا يوما في أول يوم من رجب صياما ، فقلت للوالد ، رحمه الله : « أشتهي أخـرج أذشـاغـل بـالصـيد عن الصيام » قال : « أخرج » فخرجت أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث مذقذ ، رحمه الله ، ومعنا البزاة الى الأزوار فدخلنا في سوس ، فقام لنا خنزير ذكر فطعنه أخي جرحه وبخل ذلك السوس ، فقال أخي : « الساعة يكربه الجرح ويخرج ، استقبله اطعنه اقتله » قلت : « لاتفعل يضرب فرسك يقتلها » نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زورا آخر ، فالتقاه أخي طعنه في سنامة انكسرت فيه عالية القنطارية التي طعنه بها ، وبخل تحت فرس شقراء تحته عشراء محجلة شعلاء ضربها رماها ورمها ، فأما الفرس فاندفسخت فخذها وتلفت ، وأما هو فاندفكت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمه .

وركضت أنا خلف الخنزير ، فدخل في سوس مخصب وخنث فيه باقورة نائمة ماأراها من ذلك الغاب ، فقام منها ثور في صدر حصاني فندسة ، فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجامه ، وقمت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر ، فوقفت على جرف النهر وزرقته بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة ، وكسر الرمح فيه ، وسبح إلى ناحية النهر ، فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت في قرية لعمي ، فجاءوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لايقدر يطلع منه ، فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتى قتلوه ، وقلت لركابي لي : « انزل اليه » فقلع عدته وتعرى وأخذ سيفه وسبح اليه تمم قتله ، وسحب برجله وأتى به وهو يقول : « عرفكم الله ببركات صيام رجب ! استفتحناه بنجس الخنازير .

ولو كان للخنزير ظفر مثل الأسد كان اشد بأسا من الأسد ، فلقد رأيت منها خنزيرة قد أقمناها عن جريات لها ، واحد منها يضرب حافر فرس غلام معي بفرمه وهو في قد جرو القط ، فأخذ الغلام من

تركشه نشابة ومال اليه طعنه بها ، ورفعته في النشابة ، فعجبت من قتاله وضربه حافر الفرس وهو بحيث يحمل في سهم نشاب .

وكان من عجائب الصيد أننا كنا نخرج الى الجبل الى صيد الحجل ، ومعنا عشرة بزاة نتصيد بها النهار كله ، والبازياريه مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان ثلاثة من المماليك ، ومعنا كلابزيان اسم الواحد بطرس والآخر زرزور بايية وكلما أرسل البازياري على حجلة وبنجت قد صاحوا : « يابطرس ! » يعدو اليهم مثل الهجين ، كذلك النهار كله يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه ، فاذا اشبعنا البزاة ورجعنا أخذ بطرس قلاعة وعدا خلف واحد من المماليك ضربة بها ، أخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس ، فلا يزال يطارد الغلمان ماكانه كان نهاره كله يعدو من جبل الى جبل .

ومن عجائب الكلاب الزغارية أنها مأكلة الطيور ، ولاتأكل منها الا رؤوسها وأرجلها التي ماعليها لحم ، والعظام التي قد أكلت البزاة لحمها .

وكان للوالد ، رحمه الله ، كلبه سوداء زغارية يضع الغلمان بالليل على رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشرنج وهي لاتتحرك ولاتزول حتى عمشت عيناها ، وكان الوالد ، رحمه الله ، يحرر على الغلمان ويقول : « قد اعميتم هذه الكلبة ! » ولاينتهون عنها .

وأهدى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة للوالد كلبه عروفا ترسل تحت الصقور على الغزلان فكنا نرى منها العجب .

وصيد الصقور بالترتيب ، يرسل في الأول المقدم فيعلق بانن غزال يضربه ، ويرسل العون بعده فيضرب غزالا آخر ، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك ، ويرسل الرابع كذلك ، فيضرب كل صقر منها

على غزال ، فيأخذ المقدم انن غزال ويفرده من الغزلان ، فترجع الصقور جميعها اليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها ، وهذه الكلبة تحت الصقور لا تلتفت الى شيء من الغزلان الا ما عليه الصقور ، فيتفق ان يظهر العقاب فتحلل الصقور عن الغزال ، فيمضي الغزال ، وتدور الصقور ، فكنا نرى تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور ، وهي تدور تحت الصقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة ، ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور الى الدعو ، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل .

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد ، رحمهما الله ، مودة ومواصلة بالمكاتبات والرسل ، فنفذ اليه يوما يقول له : « خرجت الى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف في يوم » وذلك ان الغزلان عندهم في أرض القلعة كثيرة ، وهم يخرجون وقت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ما قد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث ، يقشونها كما يقش الحطب والعشب .

والدراج عندهم كثير في الأزوار على الفرات ، واذا شق جوف الدراجة وأزيل ما فيه وحشي بالشعر لا تتغير رائحتها أياما كثيرة ، ورأيت يوما دراجة قد شق جوفها وأخرجت قانصتها ، وفيها حية قد أكلتها نحو من شبر .

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قد بلعتها صحيحة دونها بيسير ، ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف

والظلم من شيم الذفوس
فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم .

الخاتمة

حضر ذكر الصيد وقد شهدته سبعين سنة من عمري غير ممكن ولا مستطاع ، وتضييع الأوقات في الخرافات ، من أعظم عوارض الآفات ، وأنا استغفر الله تعالى من تضييع الصبابة الباقية من العمر ، في غير طاعة واكتساب ثواب وأجر ، وهو تبارك وتعالى يغفر الخطية ، ويجزل من رحمته العطية، فهو الكريم الذي لا يخيّب أمله ، ولا يرد سائله .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله الطاهرين أجمعين ، وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل وكان في آخر الكتاب مأمثاله :

قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عنة مجالس على مولاي جدي، الأمير الأجل العالم الفاضل الصدر الكامل، عضد الدين، جليس الملوك والاسلاطين، حجة العرب، خالصة أمير المؤمنين، أدام الله سعادته ، وسألته أن يجيزني روايته عنه فأجابني إلى ذلك وسطر خطة الكريم به، وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة عشر وستمائة، صحيح ذلك، وكتب جده مرهف بن اسامة بن منقذ ، حامدا ومصليا .

الملاحق

أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين

(من وفيات الأعيان لأبن خلكان)

ورأيت في مكان آخر أنه أبو منصور علي بن اسحق ، عرف بابن السلار وزير الظاهر العبيدي صاحب مصر ورأيت في بعض تواريخ المصريين أنه كان كرديا زرزاريا وكان تربية القصر بالقاهرة ، وتقلبت به الأحوال في الولايات بالصعيد وغيره الى أن تولى الوزارة للظاهر المذكور في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم وجدت في مكان آخر أن الظاهر المذكور استوزنجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال في أول ولايته وكان ابن مصال من أكابر أمراء الدولة ، ثم تغلب عليه العادل بن السلار وعدى ابن مصال الى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما سمع بوصول ابن السلار من ولاية الاسكندرية ، طالبها للوزارة ، ودخل ابن السلار القاهرة في الخامس عشر من الشهر المذكور وتولى تدبير الأمور ، ونعت بالعادل أمير الجيوش ، وحشد ابن مصال جماعة من المغاربة وغيرهم ، وجرّد العادل العساكر للقائه فكسره بدلاص من الوجه القبلي وأخذ رأسه وبخل به القاهرة على رمح يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر العادل الى أن قتل ، وهذا القول أصح من الأول والله اعلم .

وكان ابن مصال من اهل لك ، بضم اللام وتشديد الكاف ، وهي بليدة عند برقة من أعمالها، وكان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة وبذلك تقدما ، وكانت وزارة ابن مصال نحوًا من خمسين يوما وكان ابن السلار شهما مقداما مائلا الى ارباب العقل

والصلاح ، عمر بالقاهرة مساجد ، ورأيت بظاهر مدينة بلبيس مسجدا منسوباً إليه ، وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي رحمه الله تعالى إلى ثغر الاسكندرية المحروس ، وأقام به ، ثم صار العادل المذكور واليا احتفل به وزاد في إكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه ، وهي معروفة إلى الآن ولم أر بالاسكندرية مدرسة للشافعيين سواها ، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة ، وسطوة قاطعة يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات ، ومما يحكي عنه أنه قبل وزارته بزمان وهو يومئذ من أحاد الأجناد ، دخل يوماً على الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفى الديوان ، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية ، فلما أطل عليه الكلام قال له أبو الكرم : والله إن كلامك ما يدخل في أنفي فقد قد عليه ذلك فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مدة ، فنأدى عيه في البلد وهدر دم من يخفيه . فأخرجه الذي خبأه عنده ، فخرج في زي امرأة بازار وخف ، فعرف فأخذ وحمل إلى العادل فأمر باحضار لوح من خشب ومسمار طويل فألقى على جنبه وطرح اللوح تحت أنفه ، ثم ضرب المسمار في الآن الأخرى ، فصار كلما صرخ يقول له دخل كلامي في أذنك بعد أم لا ؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الآن التي على اللوح ، ثم عطف المسمار على اللوح ، ويقال أنه شذقه بعد ذلك .

وكان قد وصل من إفريقية إلى الديار المصرية أبو الفضل عباس ابن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وهو صبي ومعه أمه واسمها بلارة ، فتزوجها العادل المذكور ، وأقامت عنده زمناً ، ورزق عباس ولدا سماه نصراً ، فكان عند جدته في دار العادل والعادل يحذو عليه ويعزه ، ثم إن العادل جهز عباساً إلى جهة الشام بسبب الجهاد وكان معه أسامة بن منقذ ، المذكور في حرف الهمزة فلما وصل إلى بلبيس ، وهو مقدم الجيش الذي سار في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها وماهي عليه ، وكونه يفارقها ويتوجه للقاء العدو ، ويقاسي الذكال فأشار عليه

اسامة ، على ما قيل ، بقتل العادل ويستقل هو بالوزارة ويستريح من النكال وتقرر بينهما أن ولده نصرا يباشر ذلك اذا رقد العادل فإنه معه في الدار ، ولا يذكر عليه ذلك وحاصل الأمر أن نصرا قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمس مائة بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة رحمه الله تعالى ، وتفصيل الواقعة يطول ، وقيل إنه قتل يوم السبت حادي عشر المحرم من السنة المذكورة، وكان والده في صحبة سقمان بن أرتق صاحب القس ، فلما أخذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان ، كما هو مذكور في ترجمة أبيه أرتق ، وجد فيه طائفة من عسكر سقمان ، فضمهم الأفضل إليه ، وكان في جملتهم السلار والد العادل المذكور ، فأخذة الأفضل إليه ، وتقدم عنده وسماه سيف الدولة ، وأكرم ولده هذا وجعل في صبيان الحجر ، ومعنى صبيان الحجر عندهم أن يكون لكل واحد منهم فرس وعدة ، فاذا قيل له عن شغل ما يحتاج أن يتوقف فيه ، وذلك على مثال الداوية والاسبطار ، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للامارة فترجع العادل بهذه الصفات وزاد عليها بالجزم والهيبة وترك المخالطة فأمره الحافظ ، وولاه الاسكندرية وكان يعرف برأس البغل، ثم تقدم وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل الظافر اسماعيل ابن الحافظ صاحب مصر، وقد ذكرته في ترجمته .

عباس بن أبي الفتح الصنهاجي

(من كتاب المقفي للمقرزي)

عباس بن أبي الفتح يحيى بن أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز
ابن بقليل بن عبد الحمير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

قيم صغيرا على يدي أبيه بلال بن رباح بن عبد الله بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان
الذي لا يسكنه شيء لما أخرجه أخوه أبو الجهم بن يحيى بن تميم بن المعز بن بادية بن عامر بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

فتزوجت بلال بعد وفاته بعلي بن السلال الملقب بالعدل
الوزير ، فسعد بها وعلا شأنه ، وشب عباس فقدمه الخليفة
الحافظ للدين ، الله وجعله صاحب الباب

فلما مات الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين
 وخمسمائة واستخلف من بعده ابنه أبو المنصور اسماعيل الظاهر
 بأمر الله ، خلع على نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال وأقامه
 في الوزارة ، فأسخط ذلك المظفر علي بن السلال ، وهو يومئذ والي
 الغربية ، وسار فرافقه عباس وتوجه معه الى القاهرة واستقر في
 وزارة الظاهر ، فخرج عباس بعسكر الى محاربة الوزير نجم الدين
 سليمان ابن مصال الى دلاص ، وقاتل ابن مصال حتى هزم من معه
 وحرق جامع دلاص ، وقد امتنع به قوم من لواته وكثير من السودان
 حتى أتلفهم ، وأسر ابن مصال وقتله وحمل رأسه ، وبخل الى
 القاهرة ، وولده نصر بن عباس يحمل الرأس على رمح .

وأقام بالقاهرة ونعت بـ « ركن الاسلام » الى أن قوي الأفرنج

ونازلوا عسقلان في البر والبحر ، فجهز العادل ابن السلار
العساكر ، وسببها مع ركن الاسلام عباس ، فخرج ومعه من
الأمراء ملهم والضرغام واسامة بن منذر في عدة .

وكان اسامة خصيصة بعباس ، فحسن له ، وقد نزلوا على
بلييس ، ان يعمل في أخذ الوزارة من العادل ، بأن يبعث ابنه ناصر
الدين نصر بن عباس الى القاهرة ليتحدث مع الظافر في ذلك ، فوافق
لهذا غرض عباس ، وبعث ابنه ، فكان من قتله العادل ما قد ذكر في
ترجمته .

فكتب الظافر الى عباس فحضر من بلييس وتقلد وزارة مصر بعد
زوج أمه والأترك قد استودشوا من قتل ابن السلار ، فلم يجد
سبيلا الى تلافي أمرهم ، وخرجوا يدا واحدة الى دمشق ، وبطل
مسير العساكر الى عسقلان ، فسر الفرنج ما وقع بالقاهرة وقالوا
لأهل عسقلان ، وهم على حصارهم ، ان سلطانكم قد قتل
ابنه ، فأنتم لمن تقاتلون ؟ ففترت عزائمهم عن القتال الى أن أخذ
الفرنج عسقلان .

واستبد عباس بأمر الدولة وضبط الأمور وأكرم
الأجناد ، وأحسن الى الأمراء الى أن قتل ابنه نصر بن عباس
الظافر ، فصعد العباس الى القصر يوم الخميس على العادة وجلس
في مقطع الوزارة ينتظر الخليفة الظافر حتى طال جلوسه فاستدعى
بمفلح زمام القصر وقال له : ان كان لولانا شغل عنا اليه في
الغد .

فمضى الزمام وهو حائر ، وأعلم أخوي الظافر يوسف وجبريل
بالقصة ، فما شكا في قتل الظافر ، فعاد اليه ، وكان من اقامته
عيسى بن الظافر ونعته بالفائز ، ما ذكر في خبره ، فظن أن الأمر قد
استقام له ، فاتاه مالم يحتسبه ، وأخذ أهل القصر في أعمال الجيلة
عليه ، فاختلف عليه الأمراء والسودان ونافروا لما اشتهر من قتل

ابنه نصر بن عباس الخليفة الظافر ، وهاجت الفتنة وصارت
العساكر أحزابا ، ولبسوا سلاحهم ، فخرج عباس لقتالهم في يوم
الاثنين عاشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكسروهم
وقتل منهم جماعة .

فبعثت عمة الفائز إلى طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهذي
تستدعيه لأخذ ثار أخيها الظافر ، فحشد وسار من منية بني
خصيب ، فبعث إليه عباس عسكرا في عاشر ربيع الآخر نزل على
أطفيح فخالف عرب أطفيح على عباس ولحقوا بطلائع وهو على
أبويط ، فسار بهم إلى دهشور (١٦١) فاضطرب عباس وانحل
عنه الناس يريدون لقاء طلائع ، وناكده أهل القاهرة بحيث أنه مر
في يوم فألقي عليه من طاق في الشارع هاوون ، ورمي مرة بقدر قد
ملئت بطعام حار ، فقال : « مابقي بعد هذا من شيء » وهم بالفرار
فوجد أبواب القاهرة مغلقة .

ثم دبر أمره وخرج ومعه ابنه نصر ، وأسامة بن منقذ ، ومعهم
جميع أموالهم ، فأخذ طلائع القاهرة ، ونهبت دور عباس وولده
وأتباعه .

وسار عباس على طريق أيلة ، فبعثت عمة الفائز إلى الفرنج
بعسقلان تعلمهم الحال وتبذل لهم المال ، فخرجوا إلى عباس
وقاتلوه ، ففر عنه أسامة بن منقذ ومعه أصحابه ، وبقي يقاتل حتى
قتل يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين
وخمسمائة ، واسر ابنه نصر وحمل إلى القاهرة .

وحكي أن عباسا جلس للمنادمة ، فلما أخذت الكأس منه
قال : تبأ لمن يعتقد امامة هؤلاء ، ويقول أنه لا يكون امام الا
بوصية ، والله لقد قتلت الظافر ولا علم له بذلك حتى يوصي ، وقد
استعرضت أقاربه كالغنم اهانة وذبحا ، وقدمت هذا الملقب

- ٥٧٦٨ -

بالفائز ، وعمره خمس سنين ، وعلى يدينا ذهبـت دولتهمـم
بالمغرب ، وكذلك تذهب بالشرق ، فقتله الله وقتل ولده الظافر .